مَلَكَـةُ العِـلْم

المَلَكَة) ؛ لأحرفها جَرْس يَنْبعث من أعطافها ، ولتَرْكِيْبةِ رَسْمِها سمتٌ يُضْفِي عليها الوقار والعظمة .

غير أن تكييف وجودها وتشخيصه على أرضيَّة العلم والمعرفة ـ يعني تَنْحية زَغَل المعرفة ، وفضول العلم ... مع التطلُّع إلى اليد المُمْسِكة بآليَّة افتراع العلم وبَعْثه ، بعيداً عن أُخْذَة رَسْم القلم ، وَوَقْع اللَّسَن .

وتوصيف (المَلَكَة) ـ عند استنطاق الفصاحة ـ مُعْجِزٌ ؛ لما فيه من اتحاد أجزاء المعاني وتداخلها ، واشتداد ارتباط ثانٍ منها بأوَّل ... وليس لِمَا شأنه أن يجئ ، على هذا الوصف حَدٌّ يَحْصره ، وقانون يُحِيط به .

هذا ، و(الملكة) أصلُ العلم ، وبريد الحَذْق فيه ، يقول ابن خلدون ـ يرحمه الله ـ : ((الحذق في العلم ، والتَّفَنُّن فيه ، والاستيلاء عليه ـ إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده ، والوقوف على مسائله ، واستنباط فروعه من أصول . وما لم تَحْصُل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك المُتَنَاوَل حاصِلاً))(1) .

وارتياد نواحي الظَّفَر ، بتوخِّي وجوه النُّجْح لنيل (الملكة) : يقوم على قوائم :

-أولها : نفس قابلة ، لها طبع إذا قَدَحْتَه وَرِي ، وقلب إذا أَرَيْتَه رأى . قد صَفَتْ قريحتها ، وصحَّ ذَوْقها ، وتمَّت أداتها .

وأما من كان مَيْسَم نفسه بلادة الطبع ، يؤمُّها تَقَالُّ الآلة ـ فكالنافخ في الفَحَم من غير نار ، وكالُملْتَمِس الشمَّ من أَخْشَم ! .

-وثانيها : يَعْتَلِق بالعلم المُنْتَسِبة إليه المَلَكَة ؛ بأن يُنْكَفأ عليه فَوْقَ انكِفاء الأم على واحدها ، وإلا كان بَصَره به مدخولاً. ولذلك مَبْدأ ذَكَرَه السِّعْدي يرحمه الله بقوله : ((يَنْبغي للمتعلم إذا دخل في فن من فنون العلم ـ أن يَنْظر إلى كل باب

من أبواب العلم ، فَيَحْفظ منه الأشياء المهمة ، وبحوثه النافعة ، فيُحَقِّقها ويتصوّرها كما ينبغي ، ويحرص على مآخذها ، وما هي مبنية عليه ، فإنه لا يزال على هذه الحال حتى يَحْصل له خير كثير ، وعلم غزير)) **(2)** .

ثم الصَّدَر عن ذلك يَفْتَح عَيْن القلب في ذلك العلم فَيُحْتَفى به مدارسةً ومزاولةً، و(المزاولات تُعْطي الملكات ، والتمرينات ترقِّي صاحبها لِدَرَج الكمالات) **(3)** .

-وثالثها : مَدُّ جسرِ المعرفة للعلوم التي بينها وبين (علم الملكة) ـ سبب وثيق ، ولا يكاد صِنْف من العلم يَتَوَحَّد ، يقول الدَّلَجي ـ يرحمه الله ـ : ((العلوم مربوطٌ بعضها ببعض ومتعلِّق به ، إما على سبيل الاستلزام ، أو على سبيل الاستمداد)) **(4)**.

وتلك العلوم الآليَّة لغيرها لا ينبغي أن يُنْظَر فيها إلا مِنْ حيث هي آلة لذلك الغير فقط ، ولا يُوَسَّع فيها الكلام ، ولا تُفَرَّع المسائل ؛ لأن ذلك مُخْرِجٌ لها عن المقصود ، إذ المقصود منها ما هي آلة له لا غير ، فكلما خرجتْ عن ذلك خرجتْ عن المقصود ، وصار الاشتغال بها لَغْواً مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها) **(5)** .

ومِنْ كُلِّ ذلك يَبِيْن الفَارِق بين الملكة التي هي عمود العلم ، وبين مُجرَّد حفظ مفردات العلم وفهمها ، يقول ابن خلدون يرحمه الله : ((الملكة هي غير الفهم والوعي ؛ لأنا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن الواحد ووعيها ـ مشتركاً بين مَنْ شَدَا في ذلك الفن وبين مَنْ هو مبتدئ فيه ، وبين العامِّي الذي لم يُحَصِّل علماً وبين العالم النِّحْرِير)) **(6)**.

(1) المقدمة (2/111ـ 112) طبعة : مؤسسة الكتب الثقافية .

(2) الفتاوي ، ص 101 .

(3) المصدر السابق .

(4) الفلاكة والمفلوكون ، ص 41 .

(5) المقدمة ، لابن خلدون يرحمه الله (2/238) .

(6) المصدر السابق (2/112) .